(١)

تنظيم النسل قضية أخذ بالأسباب الشرعية

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه ورسوله، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ، وبعد:

فقد خلق الله (عز وجل) الإنسان لغاية كبرى، ورسالة سامية، وطلب منه عمارة الأرض، والإصلاح فيها، حيث يقول تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، وهذا يتطلب بناء إنسان قوي، قادر على الوفاء بحق دينه ووطنه.

والمتأمل في الشريعة الإسلامية يجد أنها أولت إعداد الإنسان عناية خاصة، بداية من تكوين الأسرة، مرورًا بمراحل الحمل، والولادة، والرضاعة؛ فكفلت له حقه في الرضاعة الطبيعية حولين كاملين، حتى ينمو في صحة جيدة، حيث يقول تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، ويقول سبحانه: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، وقد عدَّ الفقهاء إيقاع الحمل مع الإرضاع جَوْرًا على حق الرضيع والجنين، وسمَّوْا لبن الأم التي تجمع بين الحمل والإرضاع لبنَ الغِيلة؛ وكأن كلًّا من الطفلين قد اقتطع جُزءًا من حق أخيه؛ مما قد يعرض أحدهما، أو يعرضهما معًا للضعف.

ومن هنا كانت أهمية تنظيم النسل الذي يعد في واقعنا الراهن ضرورة شرعية، كما أنه داخل بقوة في باب الأخذ بالأسباب، حـ يث يـ قول نبيـ نا (صلى الله علـ يه وسلم): (اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ).

إن قضية تنظيم النسل لون من ألوان وفاء الوالدين بحقوق أبـ نائهم، فـ كل ربّ أسرة مسئول عن أبنائه، في التربية القويمة، والتعـ ليم الـ صحيح، والتنـ شئة الـ سوية؛ ليكون عضوًا نافعًا لدينه، ووطنه، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ)، ويقول سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عـ نه): أَدِّبِ ابْـ نَكَ، فَإِنَّكَ مَسْئُولٌ عَنْ وَلَدِكَ، مَاذَا أَدَّبْتَهُ؟ وَمَاذَا عَلَّمْتَهُ؟

ولا شك أن الأمم التي تحسن تعليم أبنائها، وإعدادهم، وتأهليهم، أ مم تتـ قدم، وترتقي، فالعبرة ليست بالكثرة العددية؛ وإنما بالصلاح، والنفع، فإن القلة التي يُرجى خيرها وبركتها، خير من الكثرة التي لا خير فيها، وهذا ما أكده الـ قرآن الـ كريم في قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

والمتدبر في حال الأنبياء يجد أنهم لم يطلبوا من الله تعالى كثرة الأبناء؛ وإ نما طلبوا الذرية الصالحة النافعة، فهذا سيدنا إبراهيم (عليه السلام) يدعو ربه قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وهذا سيدنا زكريا (عليه السلام) يدعو ر به راجـ يًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، كما جاء في القرآن الكريم طـ لب عـ باد الـ لرحمن الذرية الصالحة النافعة المباركة التي تسعد بها النفوس، وتقر بها الأعين، حيث يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

ومعلوم أن القلة القوية النافعة خير من كثرة ضعيفة هزيلة، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! فَمِنْ قِلّةٍ يَوْمَئِذٍ؟! قَالَ: لا، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ).

****

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن الأخذ بأسباب العلم في عملية تنظيم النسل يعد ضرورة شرعية ووطنية، وله أثره في رقي المجتمع، وتقدمه، والمتدبر في قوله (صلى الله عليه وسلم): (تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ)، يجد أن المباهاة لا تكون بالكثرة الضعيفة التي تعيش عالة على غيرها؛ إنما تكون بالكثرة القوية، الصالحة، النافعة، التي بيَّنها نبينا (صلى الله عليه وسلم) في قوله: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِي خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيف...).

وهذا ما بيَّنه الصحابة الكرام – وهم خير الناس اقتداءً برسول الله (صلى الله عليه وسلم)– فقد خطب سيدنا عَمْرو بن الْعَاصِ (رضي الله عنه) قائلا: يا معشر الناس، إياكم وخلالا أربع، فإنها تدعو إلى النَّصَب بعد الراحة، وإلى الضيق بعد السعة، وإلى المذلة بعد العزة، إياكم وكثرة العيال، وإخفاض الحال، وتضييع المال، والقيل بعد القال، في غير درك ولا نوال، ويقول ابن عمر (رضي الله عنهما): جهدُ البلاءِ: كثرةُ العيالِ مع قلَّة الشَّيءِ.

فما أحوجنا إلى الفهم الصحيح لديننا، وواقعنا، وأن نجتهد فنحسن إلى أبنائنا، ونعمل على حسن تربيتهم، وتعليمهم، وإعدادهم؛ ليسهموا في بناء الحضارة، ونهضة البلاد، بفكرٍ واعٍ، وعقلٍ مستنيرٍ، يقدِّر معنى المسئولية، ويقوم بها على أكمل وجه، وفي أفضل صورة.

اللهم فقهنا في ديننا، واحفظ أبناءنا، وشبابنا، وبلادنا، وسائر بلاد العالمين.